

الفصل الثالث

تاريخ العرب السياسى فى المغرب

خلال عهد آل عثمان

—

١ - تغلب آل عثمان على شمالى إفريقيا :

ظهرت السلطنة العثمانية فى أثناء العراك الذى كان ناشبا بين دول شبه جزيرة أسبانيا من جهة ، وحكومات تونس وتلسان ومراكش من جهة أخرى ، وكان عراكا أشبه شىء بمعالجة الذئب للحمل ، أغرى حكومة نابولى وأطمعها فى البلاد الإسلامية ، فخرجت إلى الميدان تسابق الطامعين فى مضمار الاستعمار . وقد وفقت الدول الأسبانية والبرتغالية لاحتلال ثغور المغرب والجزائر المهمة ، ثم لوضع الجزية على تونس ، كما تمكنت حكومة نابولى من احتلال طرابلس الغرب .

إزاء هذا الخطر المتفاقم ولت حكومات تلك البلاد وجوهها شطر الدولة الإسلامية ، التى كانت قد فتحت عاصمة البين نطيين ، وكانت أوشكت أن تجعل البحر المتوسط تحت سيادتها . وما أشد ما استولى على أوربة الجنوبية من القلق ، من جراء تسرب نفوذ العثمانيين إلى المغرب ، فتنادت لصدفهم ، وتعاونت لدفعهم ، ولكنها لم تستطع إلى ذلك سبيلا . وكان النصر حتى حين حليف الترك ، على ما نبينه فيما يلى :

ب - مراكش خلال الحكم العثماني :

قلق أهل المغرب الأقصى من جراء احتلال كل من أسبانيا والبرتغال الثغور المغربية ، وكاد يستولى عليهم اليأس ، لأن أصحاب البلاد من بنى مرين أضحوا غير أكفاء لدفع المكتسحين ، وكانت تنقصهم النعمة الدينية . وفيما هم كذلك إذ وجدوا ضالتهم المنشودة فى أسرة من الأشراف ، كان الاضطهاد قد ألقى بها فى رحاب البادية ، وأعنى بهم الأشراف السعديين . وما إن ظهر هؤلاء فى المغرب حتى التف الشعب حولهم ، ناظرا إليهم نظر المنقذ . وفى الواقع قد حقق السعديون الأمل المعقود عليهم ، إذ استعادوا معظم

الحصون الساحلية ، وأظهروا خلافا لأسلافهم ، حكمة في الإدارة ، ودربة في التنظيم العسكرى . وهكذا أقاموا دولة استطاعت أن تدفع الطامعين الأوربيين عن البلاد ، وأن تبلغ فتوحاتها السودان فى عهد السلطان أحمد المنصور . واستعانت هذه السلطنة بالثروة التى جنتها من هذه الفتوحات ، على مباشرة الإصلاح والنهوض بالعمران .

ولما حاول السلطان سليمان القانونى أن يحتاز إلى مراکش ، خف الشرفاء السعديون للوقوف فى وجهه ، فما استطاع أن يحقق أملا فى وطنهم . ولكن السلطان سليمان الثانى لم يلبث أن أدرك الغاية التى فأت أباه ، فقد استنجد به بعض السعديين على بعض ، فأيدهم بجيش من الجزائر كان النصر حليفه ، فتقررت بذلك سيادة آل عثمان على حكومة السعديين ، واستمرت الخطبة لهم مدة من الزمن ، غير أن السعديين لم يعتبروا بما أصابهم ، وكسبت أيديهم ، بل ظلوا على تنازعهم ، حتى خرجت البلاد جميعا من سلطتهم .

وكانت هناك أسرة أخرى حجازية الأصل ، وثيقة النسب ، اشتهر عميدها الشريف محمد بالكفاية والنزاهة ، فالتف المراكشيون حوله ، وبايعوه سنة (١٠٣٠ هـ = ١٦٢٠ م) . ثم اجتمعت بقية الأحزاب على ولده من بعده ، ودانت له البلاد ، ولا يزال الحكم فيهم حتى الآن . وقد واضبت أسرة الشرفاء المشار إليها على الولاء لآل عثمان ، فاستنجد أحدهم ، وهو السلطان محمد ابن عبد الله بالسلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ - ١٧٧٤ م) على الأفرنج ، الذين كانوا يغزون بلاده ، ووجه إليه الهدايا الثمينة ، فأنجده عاهل الترك ، وساق إليه سفينة محملة بالعتاد الحربى . على أن سلطان المغرب لم ينس لآل عثمان هذه العاطفة ، بل قابلهم بأحسن منها ، فأرسل إلى السلطان عبد الحميد الأول (١٧٧٤ - ١٧٨٩ م) أربع سفن طافحة بالنخائر والهدايا ، حينما نشبت الحرب بينه وبين روسيا .

ومما يذكر لهذه الدولة الشريفة ، عنايتها بالمدنية العربية ، وبلغة العرب أشد عناية ، ولكنها كانت كثيرة الخوف من التجدد في الشؤون الإدارية والجندية، وظلت إلى منتصف القرن التاسع عشر تعتمد في شؤونها العسكرية على قبائل تخصها بالروائب والأسلحة، ثم رأت الحاجة ماسة لإعداد جند منظم، فاستعانت أول الأمر بتونس، ثم تحولت إلى فرنسا .

وكانت إلى ذلك تمنع الأجانب من سكنى البلاد ما عدا الساحل، ولذلك كان قناصل الدول يقيمون في طنجة . أما اليهود المواطنون فكانوا طلقاء يسكنون حيث يشاءون ، وإذا بهم من بعد يصبحون مطية للاستعمار . ذلك أن كثيرين منهم اكتسبوا جنسية أوروبية بالهجرة إلى أوربة ، فاتخذوا بعد عودتهم إلى مراكش هذه الجنسية سلاحا ضد السلطنة . وفي الواقع كان موقفهم هذا يؤدي إلى أزمات سياسية وفتن، حتى إن مؤتمر مدريد الذي تنادت الدول لعقده (١٢٩٧ هـ = ١٨٧٩ م) كانت الغاية منه النظر في أحوال الرعايا الأجانب بمراكش . هذا وكانت فرنسا تتحين الفرص الدولية لبسط سلطانها على مراكش ، ولكن التوازن السياسي كان يكبح جماحها ، حتى إذا ما اتفقت مع إنكلترا سنة ١٩٠٤ م على اقتسام مناطق النفوذ في شمالي إفريقيا ، وعقد مؤتمر الجزيرة سنة ١٩٠٦ م كان مقتل فرنسي واحد كافيا لاستئناف فرنسا الحملة على مراكش، ومبررا لاحتلالها قسما منها . ولما حدثت فتنة سنة ١٩١١ ، اتخذتها فرنسا حجة أخرى للزحف على فاس القاعدة، تلبية لدعوة مولاي عبد الحفيظ الذي طالب حمايتها.

وقد أثار احتلالها مراكش مساومات دولية، انتهت في ٣٠ آذار سنة ١٩١٣ بالاعتراف لها بالحماية على تلك البلاد، لقاء الاعتراف لأسبانيا ببلاد الريف المراكشي ، ولإيطاليا بليبيا، فضلا عن الاعتراف لإنكلترا باحتلال

أما ألمانيا التي كانت قد مدت أصبعها إلى نطاق الاستعمار، فقد رشتها الدول المتآمرة، بآلاف الأميال المربعة في جوار الكونخو، بالإضافة إلى وعد أعطته إياها فرنسا، يتضمن المساواة بينهما بمراكش في المصالح الاقتصادية.

ح — باشوية إفريقية :

كان أوروغ رجلا روميا ولد في جزيرة موللي ، واستهوت منذ صباه القرصنة التي استفحل أمرها خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ؛ وقد حملته هذا الشغف بالقرصنة على الالتحاق بخدمة باي تونس ، واعتنق الإسلام ، فداع صيته منذ ذلك الحين ، ولا سيما بعد احتلاله ثغر جبجلى في الجزائر سنة ١٥١٤ م .

كانت الجزائر في ذلك الحين تابعة لحكومة تلمسان ، وتمتع ببعض الاستقلال، فلما ضيق الأسبان عليها الخناق، ماوسعها إلا أن تستنجد بأوروغ، فأنجدها ليستولى عليها، ثم ليتبع بها تلمسان نفسها. وشاء أوروغ أن يجعل له حتما شرعا غير حق القوة، فلجأ إلى الباب العالي بالآستانة ، ونال من لدنه براءة للولاية على الجزائر .

وقد حسب الأسبان له الحساب، فانتضوا عليه بأساطيلهم سنة ١٥١٦م، ولكنه ردهم خائبين، وانتصر عليهم، ثم عجز عن لتأئهم بعد سنتين من ذلك، وحاصروه في تلمسان وقتل . واستطاع أخوه خير الدين الملقب بيارباروس، أن يحتفظ بشعر الجزائر، ولكنه ظل قلقا حيال خطر الأسبان الذي يهدده، في حين أنه لم يكن يتمتع هناك بعصية تحميه. بل يعتبر دخيلا، فما وسعه من جراء ذلك إلا أن يلجأ إلى السلطان سليم الأول، ويعرض عليه احتلال المغرب باسمه احتلالا عسكريا، وقد وجد هذا الاقتراح قبولا عند السلطان، فأمره بالجيش والعدد، ومنحه لقب بكربك إفريقية، أى أمير الأمراء، وقد تفاقمت شهرة خير الدين منذ ذلك الحين وانشرت ، لأنه ما استطاع أن يدفع

الأسبان ويطارد هم فحسب، بل تمكن أيضا من إخضاع خصومه المجاورين، وعلى رأسهم باي تونس . وقد قدر له السلطان جهوده ، فاختره لقيادة الأسطول العثماني « قبودان باشا » ، بالإضافة إلى منصبه بـكربك إفريقيا . كانت أوربة تكاد تكون متحدة في ذلك الحين بشخص الأمبراطور شارل كان، الذي جمع بين تيجان دول هي أعظم دولها . وكان هذا الأمبراطور يجرى بقوة الاستمرار مجرى أسلافه عواهل أسبانيا ، في صعيد مطاردة المسلمين بعد جلائهم عن الأندلس ، وقد تمكن من بسط سلطته على تونس وطرابلس الغرب ، ولما استفحل خطر بارباروس ، كبر على الأمبراطور أن يرى العثمانيين يتعرضون لكبح جماح أمانيه في البحر المتوسط ، فأعد العدة لقتالهم، مستثيرا عليهم أوربة ، بالدعوة إلى حرب صليبية جديدة ، ولكن الظفر كان حليف العثمانيين برا وبحرا ، فقد خففوا اللقاء ، وطاردوا جيشه وجيوش حلفائه ، حتى حاصروا فينا لأول مرة سنة ١٥٢٩ م ، كما أزاحوا سلطته عن السواحل الإفريقية . واستمرت لهم سيادة البحر المتوسط عقب انتصارهم فيه على الأساطيل المتحدة سنة (٩٤٥ هـ = ١٥٤٤ م) .

وبعد وفاة خير الدين نصب السلطان مكانه على إمارة البحر وعلى ولاية إفريقية، الرئيس طورغود ، فأرغى به البحر وأزبد، وكانت بينه وبين شارل كان معارك شديدة ، عقد له فيها لواء النصر الأخير، فأصبح حاكما دون شريك على بلاد تمتد ما بين مراكش ولويا ، وزعيا مخيفا في البحر المتوسط . ولما خلفه أولوج على (١٥٦٥ - ١٥٨٧ م) أراد إنقاذ تونس من خطر أسبانيا ، التي كانت قد احتلت حلق الوادي ، فأمدده السلطان بنجدة حاولت أسبانيا دفعها ، فلم تفلح، فاحتل بها تونس، وبسط السيادة العثمانية على آل حفص حكامها ، وكانت العاقبة له أيضا في النضال المستمر الذي قام بينه وبين أسبانيا .

وبعد وفاة أولوج على ، صبح عزم الباب العالي بالآستانة أن يجرى على سياسة التجزئة ، فعمد إلى تقسيم ولاية إفريقية إلى ثلاث إيالات ، وكانت تسمى بشالوق ، أى باشويات ، وهى :

الجزائر ، وتونس ، وطرابلس .

على أن يكون لكل منها وال مستقل عن الآخر ، ينصب لثلاث سنين . وأرادت تركية بهذه التجزئة أن تقوى نفوذها ، ولسكن الضرر جاءها من حيث أرادت المنفعة ، لأن هذا التدبير بالإضافة إلى التطورات السياسية العالمية ، كان وسيلة لانقطاع صلتها تدريجيا بالمغرب ؛ ذلك أن ممثل السلطان فى كل ولاية من تلك الولايات ، أصبح من بعد محروما بالنفوذ إزاء ديوان الإنكشارية ، صاحب السلطة البرية ، وحيال طائفة رؤساء البحر ، أصحاب القوة البحرية . فكان يضطر من جراء ذلك لمسايرتهم ، والعمل معهم فى استثمار البلاد استثمارا شخصيا .

د - الجزائر فى عهد آل عثمان :

منذ غرة القرن السابع عشر انحصرت السلطة فى الجزائر بفرقة الإنكشارية ، وأصبح الداى الذى تنتخبه هذه الفرقة هو الحاكم الحقيقى . أما الباشا ممثل السلطنة فقد اقتصر نفوذه على إسداء المشورة ، ثم مازالت علاقات السلطنة بالجزائر تتضاءل ، حتى لم تعد تتجاوز تبادل الهدايا فى أثناء تنصيب كل داى ، وإرسال السلطان براءة الوظيفة لكل داى جديد . غير أن تدخل الباشوات الذين كان ينصبهم الباب العالي فى التنازع الذى كان كثير الوقوع بين المرشحين لمنصب الداى ، أتاح لعلى شاويش ، الذى انتخب لهذا المقام سنة ١٧١١ م الفرصة لإيجاد حجة يحتج بها لقطع كل صلة له بالعثمانيين ، فقد خف إلى منع ممثل السلطنة الجديد من دخول الجزائر ، مبررا عمله هذا بتدخل هؤلاء المندوبين بما لا يعينهم . وكانت أحوال تركية غير مواتية

وقتئذ لدفع معاذيره ، فاضطرت إلى المسيرة مكتفية بالسيادة الاسمية على الجزائر .

هذا ، وكانت فكرة الاستعمار قد اختمرت في رموس ساسة أوربة الحديثة ، فاتخذ هؤلاء من القرصنة التي كانت لا تزال رائجة في الجزائر حجة لإرسال الحملات عليها . بدموا ذلك منذ شارلكان ولويس الرابع عشر إلى حملة اللورد أكسموث سنة ١٨١٦ م . على أن الدايات حكام الجزائر لم يعتبروا بالخطر الخارجي الذي كان يهدد كيانهم ، بل استمروا يتنازعون أمرهم بينهم ، ويسئون معاملة الرعية ، مما أفضى إلى رواج دعاية فرنسا قبل الاحتلال كل الرواج بين الشعب المظلوم ، وكان من عواقبها أنه لما همت فرنسا بالجزائر سنة ١٨٢٧ م ، ثار الجزائريون على العنصر التركي الحاكم ، وحاصروا الفرقة المسماة « كوله » ، الموكول إليها الدفاع عن الحصون . ولكن ما إن رأى الجزائريون أنفسهم قد وقعوا داخل شبكة الصياد ، حتى انقلبوا على فرنسا يناضلونها ، وثبتوا في نضالهم حتى سنة ١٨٤٦ م .

على أن استسلام الأمير عبد القادر زعيم المعارضة في هذا العام ، وإن كان يعتبر بالنسبة للفرنسيين بداية عهد الاستقرار ، فإنّ الواقع أن الثورات الموضعية لم تنقطع إلى سنة ١٨٦٧ م ، ولا سيما في جبال الأطلس . ثم لما بلغ الجزائريين خبر اندحار فرنسا في موقعة سيدان ، ونبأ خلع نابليون الثالث ١٨٧٣ ، الذي كان يتحجب إليهم ، هبوا للثورة ، ولكن حكومة الاستعمار قابلت ثورتهم بالحديد والنار ، حتى قمعها سنة ١٨٧٥ م .

وتوالت من ثم سياسة التجارب في صدد اختبار شكل الإدارة الفرنسية بالجزائر ، إلى أن صدرت شريعة سنة ١٨٩٦ ، وهي تنص بأن يحكمها حاكم عام ، تشمل سلطته القوتين المدنية والعسكرية ، ويقوم إلى جانبه مجلس إداري يتولى انتخابه فرنسيو الجزائر وحدهم . وأما أهل البلاد الذين

احتفظوا بجنسيتهم، فلهم إدارة خاصة يرأسها أغا، وهو مع القادة الوطنيين والشيوخ مكلف إدارة الشؤون الإسلامية .

ثم بالإضافة لقانون ١٨٦٥ أصدرت فرنسا قانونا آخر سنة ١٩١٩ ، أدخلت به الجزائر في الجنسية الفرنسية، وعمدت إلى تجنيدهم ، ولكنها في الواقع فرضت بذلك على الجزائريين واجبات المواطن الفرنسي ، دون أن تمنحهم شيئا من حقوق هذا المواطن . وقد فصلنا عواقب سياستها الاستعمارية في تلك البلاد ، في كتابنا « قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور » كما أنا سنلم بذلك مختصرا في أثناء كلامنا عن الشؤون الثقافية والاقتصادية ، في فصول آتية من هذا الكتاب .

هـ - تونس في عهد آل عثمان :

كانت تونس الخضراء قاعدة إفريقية ، ومقر ولاية العرب في المغرب . وقد مثلت دورا زاهرا خلال حكم بني الأغلب فالعبيدين . ثم ترامت سلطتها إلى حد بعيد بين مشرق إفريقية ومغربها، في عهد بني حفص (٦٢٥ = ٩١٤ هـ) الذي خطب لهم في الحرمين . ودار الفلك دورته ، فإذا بها ملقاة في أحضان الفوضى ، يتنازعها عدوان : أسبانيا التي استولت على أهم ثغور الجزائر ، والنابوليتان الذين كانوا يحتلون طرابلس . وخلال ذلك نشأ خير الدين بارباروس ، وصارت له الولاية على إفريقية من قبل آل عثمان ، وكانت الجزائر قاعدة لها ، فانتشل الطريدة من أيدي الطامعين ، وكأنه أراد أن يتقابل جميل السلطان ، وذلك بنصبه إياه أميرا للبحر ، فسارع إلى تونس ، متظاهرا بمساعدة ملكها الخليع ، واحتلها باسم جلالته . ولكن أسبانيا التي كانت قد بسطت حمايتها على تونس ، لم تقف مكتوفة الأيدي ، بل سارعت إلى نجدة آل حفص ، وأعادت العرش إليهم . فانقلبت تونس

من بعد إلى ميدان قتال بين الأسبان والترك ، وظلت كذلك إلى أن احتلها نهائيا سنان باشا سنة ١٥٧٤ م باسم الأمبراطورية العثمانية .

وقبل أن يغادرها سنان باشا ألف فيها حكومة أشبه بالحكم الذي وضعه خير الدين باشا في الجزائر ، فكانت فرقة الإنكشارية مدار السلطة ، وزعماءها هم أعضاء مجلس الشورى الذي يرأسه الباشا ممثل السلطنة . وعلى رأس هؤلاء الزعماء رئيس منهم ، يطلق عليه أغا أو داي ، وهو مستقل بعض الاستقلال عن الباشا . وفي أواخر القرن السادس عشر أحدثت وظيفة البيك لإدارة الخزانة والعشائر ، فأصبحت السلطة بذلك تتمثل في ثلاثة أقانيم : الباشا ، والداي ، والبيك . ولكنها أقانيم طالما تفسخت في سبيل السيطرة العليا ، وألقت البلاد في الفوضى .

هذا ، ولما تولى مراد مؤسس الأسرة المرادية وظيفة البكوية ، أهله كفايته لنيل الباشوية من السلطان مع حق توارثها في عقبه .

وقد صفا الزمن لهذه الأسرة الحاكمة طوال القرن السابع عشر ، ثم أصابها ما أصاب أسلافها من التنازع على العرش . فاستهان بهم الدايات ، وزاحموهم على الحكم ، فقامت في تونس من جراء ذلك فتن حالية ، أطمعت بها حكام الجزائر وطرابلس الغرب . ولقد استطاع إبراهيم شريف أن يدفع الطرابلسيين عن تونس ، ولكنه عجز عن رد الجزائريين ، فأسر سنة ١٧٠٥ م ، وصارت القيادة العامة بعد أسره إلى حسين بن علي ، وهو جد أسرة البايات الذين لا يزالون يحكمون حتى الآن . وكان حسين وقتئذ أغا الإنكشارية ، فتمكن من إجلاء الجزائريين عن الولاية ، واكنسب عواطف أهلها ، فبايعوه بيكا عليهم ، وأقرت السلطنة ولايته سنة (١١١٧ هـ = ١٧٠٥ م) . وقد أنشأ البابات قوة عسكرية لا بأس بها من التونسيين والقبائل ، وألغوا الإنكشارية ، ليقيموا مقامها الجند النظامي . (١٨٢٩) .

وكان النفوذ الأوربي قد شرع يتسرب إلى تونس وسائر إفريقيا ، خصوصا منذ وقعت حكومة الباب العالي في مشاغل داخلية وخارجية صرفتها عن شمالي إفريقيا . وبلغ من تدخل الدول في شؤون تركية ، أنها لم تقتصر على توزيع الأمصار الأوربية في مؤتمر فينا إلى هذا وذاك فقط ، بل تطرقت في هذا المؤتمر إلى بحث قضايا البحر المتوسط ، ثم استأنفت هذا البحث في مؤتمر إكس لاشابل . وكانت مطامع فرنسا قد امتدت إلى تونس منذ احتلت ثغر الجزائر سنة ١٨٣٠ م .

ولما أراد السلطان محمود الثاني أن يتدارك الخطر ، وعمد إلى تثبيت حقوقه على الإيالة ، تصدت له فرنسا جهارا ، وذلك بإرسالها الأميرال هوكون سنة ١٨٤٥ م ، ليقف في وجه عمارة عثمانية كانت تقل حملة إلى تونس . ثم تفاقم هذا الخلاف بينهما أعوام ١٨٤٥ ، و١٨٥٤ ، و١٨٦٤ م ، وبلغ من عدوانها أنها حاولت منع البايات الجدد من قبول براءة التنصيب الصادرة عن دار السلطنة ، ثم شاء القدر أن تساعد الأحوال ، فتبلغ أمنيته ، ذلك أن فرنسا وجدت في الباي أحمد (١٨٣٧ م) طموحا للتمثل بمحمد على الكبير عاهل مصر والنشبه به ، ففتحت له خزائنها ، وعملت على تنشيطه ، للإتفاق في سبيل التجديد ، ودعته إلى باريس ، حيث استقبلته أحسن استقبال . فإذا هو بعد قليل سجين الرساميل الفرنسية ، وإذا به في الواقع يفتح باب الإيالة الموصد على مصراعيه لدائنيه . ثم شاء الباي محمد (١٨٥٥ م) أن يتدارك الأمر ، فتحول إلى سياسة الجامعة الإسلامية يشد أزره بها ، وولى وجهه شطر الباب العالي ، وهو فضلا عن الاعتراف للسلطان بالسيادة ، برهن فعلا على إخلاصه لجلالته ، وساق نجدة له في حربه ضد روسيا . ومع ذلك فإن الباي محمدا لم يتخل عن خطة سلفه الإصلاحية ، بل زاد عليها بأن أصدر القانون الأساسي . ولكن المستعمرين كانوا له بالمرصاد ، واستعانوا عليه

بالدعاية ، فتمكنوا بها من جعل الشعب التونسي يقابل تلك الإصلاحات بالتذمر والشكوى ، على أساس أن الباي يثقل عاتق المكلفين .

هذا ، وكادت الخزانة تفلس في عهد خلفه محمد الصادق (١٨٥٩ م) ، ومع ذلك لزم هذا الباي خطة سلفه ، من حيث توثيق العلاقات بينه وبين تركيا ، والحذر من فرنسا ، متحاميا عقد القروض معها .

ورأى السلطان عبد العزيز بانكسار الجمهورية الفرنسية سنة ١٨٧١ في الحرب بينها وبين الألمان فرصة سانحة ، فأصدر فرمانا اعتبر به تونس ولاية عثمانية . ولكن فرنسا لم تعترف بهذا فرمان ، وظلت تعمل في سبيل توسيع نطاق نفوذها بتونس ، حتى إذا كانت سنة ١٨٨١ بسطت حمايتها عليها . ولم تصطدم فرنسا في تونس بمثل ما اصطدمت به من المقاومة الشديدة بالجزائر ، فشرعت - خلافا لما تعهدت به في معاهدة « قصر سعيد » - تعمل على تحديد سلطة الباي وحكومته ، حتى تسنى لها الاستقلال في الشؤون الداخلية والخارجية . وقد حملت الباي على توقيع معاهدات تبيح لها هذا الاستقلال . ونذكر منها معاهدة « المرسى » سنة ١٨٨٣ . أما الباي فيظل حاكما بالإرث تحت إشراف المقيم الفرنسي ، ولا تتعدى سلطته حكومة أصبحت قاصرة ، وجندا بات لا يتعدى حرسه الخاص .

وفضلا عن ذلك قطعت دولة الحماية أوصال كل تدخل أجنبي سواها ، فألغت المجلس الدولي المالي ، وعطلت المحاكم القنصلية ، وأغلقت إدارات البريد الأجنبية .

وكما أنها بسطت يدها على مرافق البلاد ، تصرفت بشبابها فسقت الجند التونسي إلى خطوط النار الأمامية في الحربين العالميتين ١٩١٤ و ١٩٣٩ . وفي الفصول التالية أمثلة على تصرفاتها في الشؤون الاقتصادية والثقافية ، رغبة في إصابة أهداف الاستعمار والاستثمار .

طرابلس الغرب في عهد آل عثمان :

دخلت ليبيا في حوزة العرب إبان خلافة عمر بن الخطاب ، وكان مصيرها السياسي مرتبلا أكثر الأزمان بمصير تونس : فقد خضعت لبني الأغلب وبني زيري ، إلى أن استقل فيه بنو حماد (٣٩٨ — ٥٤٧ هـ) وهم فرع من بني زيري ، ثم عادت مرة أخرى للخضوع إلى تونس خلال حكم آل حفص ، ولكنها انتقلت منهم إلى الأسبان إبان التنازع الذي وقع بين هذه الأسرة ، ثم طمح بها النابوليتان ، فتدخلوا أيضا بين أولئك المتنازعين على العرش واحتلوها .

وكانت دولة آل عثمان تراقب هذه الأحداث وغيرها مما يقع في المغرب ، ولما جهزت أسطولا بقيادة سنان باشا لفتح تونس ، أصدرت إليه الأمر بأن يعرج على طرابلس ، وكان شارلكان قد وهبها لرهبانية مالطة بعد أن أضاع هؤلاء رودس ، فاستولى سنان باشا عليها (١٥٥١ م) وأقام فيها حكومة على أساس التنظيم الإداري الذي سنده خير الدين بارباروس للجزائر . وكانت هذه الولاية مؤلفة من برقة وغدامس وفزان ، بالإضافة إلى طرابلس . وأما منطقة بني غازي فكانت تارة تلتحق بها وأخرى تنفرد عنها . وقد وقعت في طرابلس أحداث سياسية كثيرة الشبه بأحداث الجزائر وتونس ، استبد فيها الدايات على التوالي ، حتى انتهى بهم الأمر إلى رفض الباشا ممثل السلطنة سنة ١٧١٣ م . ومنذ ذلك استأثر آل القرماني بالسلطة المطلقة ، على أنهم احتفظوا للباب العالي بالسيادة الاسمية فقط ، ومن مظاهر هذه السيادة توجيه السلطان براءة للأمير كل ثلاثة أعوام ، إشارة لتنصيبه ، وكان الأمير يقابلها بدفع الهدايا إلى جلالته .

هذا ، وكانت القارة الإفريقية حتى ذلك الوقت مجهولة المسالك عند الأوربيين ، على حين أنها جلية معروفة عند العرب ، ولا سيما تلك الطريق

التجارية الكبرى التي تصل السودان - موطن العاج وريش النعام والجلود وغيرها - بساحل البحر المتوسط . فلما وضع آل القرملى يدهم على السلطة في ليبيا مستقلين، انصرفوا إلى العناية بهذه الطريق التجارية، كما عنوا بتجديد الأسطول وتعميره . فأدركوا كثيرا من الثروة ، وجعوا بعض مدنها في الساحل تحتل مكانة مهمة في نظر الأوربيين . وعلاوة على ذلك أصبحت عمارتهم البحرية تلبى الرعب في البحر المتوسط . وهذه المكانة التي صارت لآل القرملى في الناحيتين السياسية والاقتصادية ، كانت حافزا للدول الأوربية، لأن تتقدم إليهم، وتعتد معهم الاتفاقات . وكانت بريطانيا العظمى أسبقها إلى ذلك . فوقعت معاهدة سنة ١٧١٥ م . وتلاها البندقيون سنة ١٧٦٥ م فخيرهم .

واشتبكت لوييا فيما بعد بحرب مع حكومة السويد ، ثم مع الولايات المتحدة ، فرجحت كفتها اعتمادا على القرصنة ، وكان ذلك مما أتاح لها أن تتقاضى جعلا من بعض الدول باسم حماية التجارة ، هو من نوع « الخوة » . وقد أثير هذا الموضوع في مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ ، فالتخذت الدول قرارا يرمى إلى مكافحة خطر البحرية اللوية . وكان الفرنسيون قد احتلوا سنة ١٨١٣ م الجزائر ، فكان هذا الاحتلال بمثابة نقطة ارتكاز للدول ، لتحقيق ما قررت في ذلك المؤتمر . كما كان به القضاء المبرم على قوى آل القرملى البحرية . وعلاوة على ذلك منيت تلك الإيالة بأزمات داخلية متتابعة كانت حافزا للدولة العثمانية على إرسال أسطولها سنة ١٨٣٥ م لاحتلالها وإعادةها إلى حظيرة السلطنة . وظلت من بعد تتردى في الفوضى وسوء الإدارة ، حتى كانت إيطاليا الناشئة تشخص إليها بأنظارها ، وتنحين الفرص لاحتلالها ؛ فلما كانت سنة ١٩١١ م وثبتت إيطاليا عليها ، فقابلها أهل البلاد بمقاومة عنيفة ، بالاشتراك مع جيوش السلطنة، وقفتها عند حدود الساحل . غير أن الحرب التي شنتها الدول البلقانية متحدة على تركيا في العام

التالى بالاتفاق مع إيطاليا، خلقت لهذه الدولة فرصة سانحة لإجبار الباب العالي على الاعتراف لها بهذا الاحتلال .

ز — القبائل العربية المستقلة فى إفريقيا فى عهد آل عثمان :

كانت تركية تحكم شمالى إفريقيا فى أكثر الأزمان حكما اسما يكاد يقتصر على الأمصار الساحلية . أما فى الداخل ، فقد استمرت السلطنة فى حوزة القبائل ، من بربرية مستعربة وعربية وغيرها .

وكانت القبائل من البربر التى تنتشر فى سلسلة أطلس الممتدة من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ، كانت هذه القبائل مستقلة ، ومثلها قبائل أخرى تنزل فى جبال الريف ، على مقربة من الساحل .

وكان أهل الطرق ولا سيما آل الإدريسي وآل السنوسى يوغلون فى الداخل لنشر الإسلام ، وقد حجبوا التدين لأهل تلك البيئات ، وبثوا فكرة الإخاء بينهم . هذا إلى أن إماما جديدا اسمه صالح ظهر فى بداية القرن السابع عشر فى بلاد السودان ، ينتسب إلى الخلفاء العباسيين ، وقد ساح فى الوادى مبشرا بالإسلام ، فأسلم سكانه ، والتفوا حوله .

وفى ذلك العصر استولى السلطان صابون حاكم السودان ، على بلاد بحيرة ، وتقدم حتى بلغ بحيرة تشاد ، وكان يحمل فى يده السيف ، وفى اليد الأخرى القرآن ، فأمن على يديه كثيرون ، وانتشر الإسلام .

وفضلا عن ذلك ، قامت سنة ١٨١٠ فى الداخل فيما بين الجزائر ومراكش ، مملكة صغيرة عرفت بمملكة سيدى هشام ، كانت مدينة طالان قاعدتها ، وكان أهل هذه المملكة من العرب وشيلوق . وقد اشتهرت هذه المملكة بأنها كانت محط رجال القوافل التى تنقل التجارة ما بين تمبيكو ومراكش .

على أن تيار الاستعمار لم يقف فى وجهه جبال ولا قفار ، بل جرف فيما جرف كل هذه البلاد التى كانت الصحراء حى لها ومناعة .